شارع دجلة
أوراق من سيرة مبكرة للألم

عبد الخالق كيطان

إلى أبي... تذكاراً للأيام المرة.. وللغياب.. والناس..

(١٣)

كان قصف اليوم الأول عاصفاً بحق، يبدو أنهم قرروا منذ اليوم الأول للحرب، أية حرب؟، معاقبة الشعب العراقي بأكمله، كان القصف يشتد لحظة بعد لحظة، ونحن لا نملك سوى أن نتفرج على ما يحدث ليس إلا، ويا لها من فرجة، تصوّر أنك ترى الصواريخ في السماء كأنها ألعاب أطفال في الوقت الذي تدرك فيه جيداً بأنها ذاهبة لتقتل أباً أو أماً أو أختاً أو صديقاً أو حبيبة أو عزيزاً، السماء تحولت إلى ساحة ألعاب ضخمة جداً، بمعنى لا يمكن مجرد تخيلها، ولكن اللون الوحيد المتوفر فيها هذه المرة هو اللون الأحمر فقط، اللون الأحمر كان يبثنا بهجة وموتاً ساحراً، شخصياً لم أكن أتوقع سحريته إلا بعد أن ذهبت إلى (العمارة)، هناك فقط، رأيته، رأيته أولاً عندما قتل الرسام أمير الشيخ الذي كان واقفاً أمام مبنى الاتصالات منتظراً أن يزوره طيف الجمال لكن الصاروخ الذاهب إلى المبنى كان الأقرب إليه فاستقبله بالأحضان، هنا عرفت الموت الذي أتحدث عنه، وهو مشهد سيتكرر كثيراً في أيام القصف الطويلة، واللافت أنه يتكرر مع أناس أتفق الجميع على محبتهم أو أنهم كانوا في الأقل لا يستحقون موتاً مباغتاً بهذه الطريقة المفجعة. كان واحداً من هؤلاء الذين أتحدث عنهم الآن في طريقه إلى من ينجده لإطعام أولاده، وهم كثر (أقصد أولاده)، ولما وصل منتصف جسر العمارة الكبير تقصّدته إحدى الطائرات فأصبح أشلاء، أخاف أن أذكر المزيد من الأمثلة والقصص فهي تتشابه في براعتها في الموت، ولكن ماذا عن مجالس عزاء هؤلاء؟ لاشيء، فالناس في تلك الأيام نسيت عاداتها في إكرام الموتى بالدفن وإقامة مراسيم الجنازة بما هو لائق بالمتوفى وما إلى ذلك من طقوس كانت سارية المفعول في حياة العراقيين وتركزت في سنوات الحرب الطويلة مع إيران، ولكن سرعان ما تغير الأمر هذه الأيام وأصبح التفكير بالذات وإهمال ما سواها أمراً عادياً، كيف لا والموت لم يكن ينتقي أو يفرق علاوة على قربه المبالغ فيه من الجميع، فالناس إذن لم تكن بحال موتاها، أنها تائهة بين اللقمة الصعبة، بل النادرة، وبين المحافظة على حياتها بأية وسيلة ممكنة..

لما قتل أخي سلمان، مثلاً، جاؤا بجثمانه ظهراً واحتار الجميع في الإجابة عن أسئلة كثيرة من قبيل : أين سندفنه، وكيف، ومن أين سنتدبر السيارة التي ستنقله، ومن سيقودها في حال حصلنا عليها وحصلنا على وقودها، من سيذهب مع الجنازة؟.. أسئلة كثيرة احتار أبي، وهو الكبير في السن، في إيجاد أجوبتها المستحيلة فقرر الإبقاء على الجثمان في بيتنا هذه الليلة ريثما نجد من يفك لنا عقد الأسئلة هذه وكان العون في اليوم التالي، كالعادة، من أخوالي الذين ما أن وصلهم الخبر حتى سارعوا إلى نجدتنا بأن أحضروا (تراكتورا وعربانته) وقاموا بنقل الجثمان إلى جزيرة نائية شرق العمارة يطلق عليها : جزيرة سيد نور، حيث كان أخوالي يعملون (خدماً) في مقامين لسيدين وليين من أولياء الله ومن نسل سيدنا محمد (ص) وهما (السيد نور ابن المبرقع وابن عمه السيد سعدون) ويقيم أخوالي عند المقامين، وهناك أيضاً كانت ثمة مقبرة قديمة يدفن فيها الناس موتاهم في ما إذا كانت أحوالهم المادية سيئة، وفي هذه المقبرة، التي كان يرقد فيها جدي لأمي، أجمعت العائلة على دفن أخي على سبيل (الأمانة) لصعوبة الوصول إلى مقبرة النجف الأشرف حيث اعتدنا دفن موتانا، وبعد شهور عندما انتهت الحرب قام أبي بنقل الجثمان إلى مقبرة النجف الأشرف، قال والدي بأن الجثمان كان محافظاً على نداوته وذلك من بركات أمير المؤمنين(ع) حيث يتوقع الجميع عكس ذلك، خاصة في ظل ظروف مناخية سيئة، وقد أكد من كان مع والدي ذلك وأضافوا بأنه لم يتفسخ وما زال يحتفظ بسيماء اليوم الأول للوفاة. في تلك الأيام كنت قد رجعت إلى بغداد، وقد عرفت بما حصل من نقل للجثمان فيما بعد..

كنت أتحدث إذن عن معاناة الناس في دفن موتاهم في تلك الظروف القاسية وهي معاناة لا يمكن تصورها اليوم على الإطلاق فقد كانت الجسور مقطعة والنفوس محطمة والإمكانيات أقل من شحيحة، لا سيارات، لا طرق، لا جسور، لا أموال، وباختصار، الناس كانت في صدمة أنستها موتاها.

(١٤)

شخصياً أمضيت أياماً لا تنسى لفرط غرابتها عقب وفاة أخي، والسبب يرجع لصبية ريفية كان بيتهم يقع إلى الخلف من بيتنا، وتعود مراقبتي لها إلى تاريخ أقدم من التاريخ الذي أتحدث عنه الآن، لقد كانت الصبية، وأسمها غير الصحيح الذي أعطتني إياه هو سوسن، من عائلة نزحت إلى مدينة العمارة من الأهوار والمناطق المشابهة التي قامت الحكومة بشن حملات تهجير منظمة لسكانها منذ سنوات، وقد استقرت الكثير من تلك العوائل في الحي العسكري الذي نسكن فيه الآن، ولم تتخل تلك العوائل عن عاداتها القديمة المتوارثة حتى وهي تعيش في المدينة، مثل تربية الماشية والنهوض المبكر جداً من النوم والاعتماد على روث الحيوانات حطباً في بعض عمليات الطهي، كما أن ملابسهم تميزهم عن غيرهم، وكانت سوسن كثيرة الحركة، وقد اشتهيتها أكثر من مرة، خاصة وأنها تمتلك جسداً أنيقاً، من جهة، ومن جهة ثانية بسبب قلة تجربتي مع المرأة والتي تدفعني دائماً لتشهي أي امرأة أصادفها، وفي ليلة شتوية قاسية سطا على بيتهم أحد اللصوص، وإن كنت أرجح أنه لم يكن لصاً وإنما طامع مثلي بنيل جسد الصبية كثيرة الحركة والغنج، المهم أن الصراخ علا في تلك الليلة، وخرجت هي وأبوها يحملان العصي إلى الشارع لتعقب اللص المزعوم، وبالطبع فقد خرجنا نحن أيضاً وبعض الجيران، وكانت سوسن تهدد وتتوعد، ولأنها خرجت مسرعة من بيتهم فلم تكن ترتدي ملابس ثقيلة تناسب الشتاء مما وفر لي فرصة أخرى للتمتع ببياض بشرتها ولو في مستوى رؤية ضعيف، وقمنا ليلتها بإقناعهم بلا جدوى البحث عن اللص في مثل هذا الوقت والجو السيئ، ولكنني انتهزت الفرصة لإظهار رجولتي أمام هذه الجميل، والذي بادرني بنظرات إعجاب خاصة!، في مرات أخرى تسنى لي الاقتراب أكثر من جسدها، وخاصة أيام مجلس العزاء البسيط الذي أقمناه لأخي، وبعد تردد كبير من جانبي استطعت أن أفاتحها بمشاريعي الغرامية معها، وقد عجبت لأنها وافقت على الفور، وفي يوم تال استطعت إقناعها بالنزول إلى بيت غير مكتمل كان يقع لصق بيتنا وأمام بيتهم، ونزلت إليه وأمسكت بجسد امرأة أخيراً!!، لم أكن أدري ساعتها ماذا افعل، شعرت أن الوقت يمضي بسرعة فائقة، كما أن المكان لم يكن مأموناً، ذلك أن أحد الجيران النازحين أيضاً كان يستخدم هذا البيت لإيواء قطيع أغنامه وخفت أن تفاجئنا الأغنام ونحن في وضع غير شرعي، ومع هذه الهواجس كلها وغيرها استطعت أن أمرر يدي على جسدها وأتنشق رائحة عطرها القروي، ما زال فيه شيء من رائحة روث الحيوانات، كما لمست أجزاء حساسة من جسدها كانت بالنسبة لي من عالم الأحلام لا اكثر ولا أقل، وانتهت دقائق اللذة بسلام، حاولت أن أعيد الكرة معها ونجحت في المكان ذاته إلا أن المرة الثالثة لم تكتمل لأن أخي الأكبر فيصل شاهدني من خلل ثقوب الحائط وأنا أداعب معبودتي وانتبهت لعينيه فخجلت.. في البيت نهرت كثيراً على جرأتي، كما أن دوامي في الكلية كان قد أزف، فغادرت العمارة متحسراً على أيامي مع سوسن، وعندما كنت أعود إلى البيت في العطلات لم تكن تسمح ظروف إجازتي القصيرة أن ألتقي بها، وفي واحدة من المرات التي نزلت فيها إلى البيت أخبرتني أمي أنهم رحلوا إلى مكان قريب ولكني لم ألتق بها، وفي مرة أخرى قالت لي أمي وهي تعطيني موجزاً عن أخبار الأهل والأصدقاء أن سوسن قد توفيت في حادث بشع..

آه أيتها الصبية اللذيذة، كم كان عسلك ضرورياً لنجاتي!!.

المرات الأخرى التي التقيت فيها نساءً كانت المرأة فيها عاهرا محترفة، هكذا قررت أن أكافح شبقي ما دمت عاجزاً عن إقامة علاقات نسائية طبيعية، فطفت على بيوت الدعارة في بغداد بيتاً بيتاً، ساعدني في ذلك أنني كنت أسكن في منطقة الحيدرخانة الشهيرة ببيوت دعارتها، بل أنني كنت أستطيع الوصول إلى ما أريد حتى في أيام المنع التي كانت تسنها الحكومة بين حين وآخر، ووصلت إلى بيوت أخرى في الكرادة وفي محلة الذهب وغيرها كثير ولم أكف عن هذه العادة إلا بعد أن صار لي و ضع في المجتمع عندما عملت في الصحافة والتلفزيون والمسرح، العجيب أن كلية الفنون الجميلة، حيث كنت طالباً، كان غيري من الطلبة قد حولوا قاعاتها في الطوابق العليا إلى أماكن للمتعة المجانية بمشاركة طالبات جميلات وأنيقات إلا أن ذلك ظل ممنوعاً علي لأربع سنوات هي سنوات دراستي في الكلية!!، وبعد أن تخرجت في الكلية وكففت عن زيارة بيوت الدعارة حدثت تطورات كبيرة على المهنة، بسبب الجوع الذي بدأ ينهش أوصال العائلة العراقية، فبالرغم من قرارات المنع الشهيرة تحولت بيوت الدعارة إلى أماكن نظيفة وأنيقة تدار من قبل رؤوس كبيرة، أما العاملات فيها فمن طالبات الكليات الجميلات، والزبائن من علية القوم والذين بإمكانهم أن يدفعوا جيداً، حتى تحول الوطن، في غفلة من الزمن، إلى دار بغاء كبرى للمسؤولين وأولادهم ولغير العراقيين الذين يصلون الى العراق للتضامن مع شعبه ضد الحصار الجائر المفروض عليه!!. وفي سنوات لاحقة قررت القيادة العراقية قطع رؤوس العاهرات بالسيوف وعلى الملأ إذا ما قام واحد من عناصرها بالتبليغ ضد العاهر.

(١٥)

الجيش النظامي عندما دخل المدينة لتحريرها من (الغوغاء)، وهذه هي التسمية الرئيسة للحكومة للمشاركين في الانتفاضة الشعبية، لم يبق ولم يذر!!، لقد تسنى لي الخروج إلى مدينة العمارة في هذه الأيام وشاهدت ما لا يمكن وصفه من تقتيل وتخريب،كانت الطرق مقفلة بالكامل ورأيت بعيني العديد من الجثث المتروكة في العراء ومنها جثة أحد المجانين وهي تغرق بالدم بعد أن نخرها رصاص القوات النظامية، ربما اعتقدوه القائد العام للانتفاضة فمثلوا بجثته، جثة أخرى لم أتعرف عليها وكانت الكلاب تنهش فيها على مقربة من وجود مفرزة للجيش كانت تفتش هويات المارين وموجوداتهم تارة، وتعتقل بعضهم تارة أخرى، كما انتبهت لحجم الدمار الذي لحق بالمدينة، دمار مزدوج الأول سببته طائرات الحلفاء وهو ما يتعلق بالجسور المقطعة الأوصال ومحطات توليد الماء والكهرباء، والدمار الثاني كان بسبب هجوم القوات النظامية على المدينة حيث يرى المتجول في المدينة شبه المهجورة بيوتا تحولت إلى أطلال وبنايات كبيرة تخترقها ثقوب القذائف والرصاص.

كانت فرصة خروجي من البيت في تلك الأيام العصيبة مردها حاجتنا إلى التسوق لمجلس عزاء أخي المصغر، وكان أحد أصدقاء أخي غازي تبرع بان يساعدنا بذلك، لقد حصل هذا الصديق الوفي على ورقة مكتوب في أعلاها ما يلي : مكتب السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، ونصت على : يسمح لحامل هذه الوثيقة بحمل السلاح والعتاد والتجول في مدينة العمارة في آي وقت، التوقيع : عزت الدوري. هذه الوثيقة كانت كافية لكي نجول المدينة طولاً وعرضاً دون خوف أو تهديد بسيارة أخي غازي العتيقة، وكان أبز مكان علينا زيارته للتسوق يقع في نهاية العمارة على طريق البصرة، هناك كانت تقع مخازن العمارة الكبرى، وبعد تفجر الانتفاضة قصدت جموع الجياع تلك المخازن فأجهزت على ما فيها من خيرات كانت ممنوعة على الناس.. وبعد دخول القوات النظامية إلى المدينة تحول الحي القريب من تلك المخازن إلى أكبر سوق للمواد الغذائية في المدينة.

أما كيف حصل صاحبنا على تلك الوثيقة، فالجواب بسيط، حيث كان أخوه مطيعاً للحكومة وقراراتها فذهب تنفيذاً لأمر ألقته الطائرات يطلب من الموظفين التوجه إلى قيادة فرع ميسان لحزب البعث الحاكم فوراً من أجل المباشرة بالعمل، وهناك كانت تنتظرهم المفاجأة : عزة الدوري، والذي استقبلهم بالسباب والوعيد والإهانة وختمها بأن وزع عليهم، وهم قلة قليلة، تلك الوثيقة حيث اعتبرهم من المخلصين الذين نفذوا الأوامر بسرعة فحالهم ليس حال الخونة والغوغاء من الموظفين الذين تغيبوا عن حضور هذا الاجتماع التاريخي مع السيد النائب، وبالطبع فهذا الأسلوب لم يكن غريباً على حكومتنا في معاملة الرعية، حتى في أحلك الظروف. وكان صاحبنا قد ذهب مع أخيه لذلك الاجتماع خوفاً عليه مما لا تحمد عقباه في الطريق فحصل بدوره على تلك الوثيقة.

هكذا إذن استطعت أن أتجول في خرائب المدينة، وبالرغم من تلك الوثيقة الخطيرة إلا أنني كنت خائفاً جداً، فالجنود الذين نصبوا سيطراتهم في كل مكان كانت لديهم أوامر واضحة وصريحة بقتل أي مشتبه به، وبالرغم من تلك الوثيقة أيضاً فقد قام الجنود بتفتيشنا وسيارتنا أكثر من أربع مرات خلال أقل من ساعتين هي زمن رحلتنا بحثاً عن ما يمكن شراؤه لمجلس العزاء، وعندما عدنا للبيت سالمين قررت أن لا أذهب في رحلة مشابهة حتى لو متنا جوعاً، ولكنني عدت وخرجت مع صديقنا ثانية!!، إلا أن ما لم يكن في حسابنا هو اعتقال أربعة رجال من العائلة دفعة واحدة هم : ابن أختي، وأبن عمي، وأبن أخي المرحوم داود، وأبن بنت عمي. لم نتوقع تلك المفاجأة ونحن في غمرة أحزاننا بفقد أخينا، لقد ألقي القبض عليهم عندما ذهبوا إلى المستشفى الجمهوري لعودة أولاد أخي سلمان الثلاثة الذين طالتهم شظايا القنبلة التي قتلت أبيهم فجعلتهم ينزفون، وعوقت أحدهم، ولأن المستشفيات في تلك الأيام بلا خدمات فقد ذهب وفد من عندنا للتبرع لهم بالدم وإطعامهم والقيام بخدمتهم، المهم أن المجاهدين كانوا اتخذوا المستشفى مقراً لهم ولعملياتهم ونجدة المصابين منهم، ولم نكن ندري بذلك فقامت القوات الحكومية باعتقال كل من وجدته في المستشفى عندما دخلت المدينة، وعلى الفور قامت بإعدام مجموعة منهم على شاطئ نهر دجلة المحاذي للمستشفى ورحلت الباقين إلى قيادة الفيلق الرابع وهناك أشبعهم الجنود ضرباً، والضرب بمثابة تحقيق معهم، وبعد حوالي شهر أطلق سراح عدد منهم بينما نقل الآخرون إلى أماكن مجهولة، وما زالت مجهولة إلى اليوم، وكان أبن بنت عمي من هؤلاء الذين لم يعرف مصيرهم أو مكان اعتقالهم إلى هذه اللحظة ولم تجد أمه غيرنا لتلقي باللوم على ضياع ولدها عليه فظلت تشتمنا في كل مكان ومناسبة، أما الثلاثة الآخرون فقد عادوا هياكل عظمية بالكاد تعرفنا عليهم بسبب ما طالهم من ضرب وتعذيب وإهانة، وكان قد شفع لهم ضابط صغير من أهالي العمارة يبدو أنه أراد إنقاذ من يصادفهم في معتقل الفيلق الرابع، خاصة وأن الثلاثة قد أصروا على روايتهم البعيدة عن المنتفضين فخلصهم من الموت بقدرة قادر، وانقلب العزاء في بيتنا إلى مناسبة يتيمة للفرح بسلامة الثلاثة.

هل نقول أنها لحظة ولادة جديدة؟ لم لا، فالموت في تلك الأيام كان قريباً جداً، أكثر مما يمكن تصوره، وبدلاً من أن نفقد خمسة أشخاص في يوم واحد فقدنا واحداً فقط، والفرق واضح بين الرقمين.

وعلى ذكر الفرق بين الرقمين، فقد كانت واحدة من أبرز عوائل مدينة العمارة قد فقدت في تلك الأيام خمسة من أبنائها دفعة واحدة، وبدون ذنب أيضا، وهي عائلة السيد جبار نعمة البطاط، وقصتهم مثيرة للغرابة فعلاً، ابتدأت عندما وقعت قذيفة في حديقة بيتهم الكبير في عواشة، فهم من أثرياء العمارة وأشرافها، وفي الحديقة كان يقف رب الأسرة السيد جبار فلم تخطئه القذيفة، وهكذا حملوه في سيارة وذهبوا به مسرعين إلى المستشفى، ومن هناك تسرب الخبر عن حاجة السيد إلى الدم، هرع إليه أهله وأحبابه، وعندما كانت السيارة التي تقل ابنتيه وطفلة احداهما، واسمها ياسمين وعمرها لم يتجاوز العاشرة، تحاول عبور جسر (الماجدية)، تعرضت للقصف بقذائف الهاون، لا أحد يعرف طبعاً مصدر النار ولكن السيارة كانت تشبه سيارات الأمن في العمارة حيث كان نوعها لاندكروز، المهم لم ينج أحد من ركاب السيارة حيث قتل الجميع على الفور وبالكاد عثر على جثث القتلى، في هذا الوقت كان السيد جبار قد فارق الحياة هو الآخر متأثراً بجراحه، وبعد يومين قرر أولاد السيد نقل جثمان أبيهم وأختيهم والطفلة إلى مقبرة النجف الأشرف، وبالفعل وضعت الجثث الأربع في سيارة بيك أب من سيارات العائلة قادها أحد الأصدقاء، وأسمه حسين، ومعه أحد الأقارب، وفي الطريق الصحراوي الذي يربط العمارة بالنجف الأشرف تعرضت السيارة لهجوم مباغت من قبل مجموعة من قطاع الطرق الذين فتحوا النار على السيارة دون تمييز لمن فيها فضربت رصاصة سائقها ما أدى إلى انحراف السيارة عن مسارها فوقعت بعيداً عن الشارع بالقرب من قرية صغيرة، أما أهل القرية فقد تعرفوا على من كان في السيارة، فنسبهم الشريف وسمعتهم الطيبة في المدينة ونواحيها كانت تسبقهم دائماً، حتى وهم أموات فبكى أهل القرية بكاءً شديدا على الجثث الأربع وخامس الجثث الذي توفي برصاص قطاع الطرق الذين قد يكونون من أقاربهم!.

في العمارة أقامت العائلة مجلس عزاء من دون أن يعرفوا أن العزاء هذا لخمسة أشخاص حتى جاءهم الخبر بعد أيام!، فصارت القصة على كل لسان في المدينة. وقمت أنا وأخي فيصل بزيارة عزائهم مثلما زاروا هم عزاءنا حيث كنا وما زلنا نرتبط وعائلة السيد جبار بعلاقات متينة جداً.

أدب ما بعد الكولونيالية
الرؤية المختلفة والسرد المضاد

ادوارد سعيد

ماركيز

الطاهر بن جلون

نايبول

سعد محمد رحيم

لا يشير اصطلاح "ما بعد الكولونيالية" ببساطة إلى فاصلة زمنية/ تاريخية (مرحلة الكولونيالية ومرحلة ما بعد الكولونيالية. التحرر والاستقلال وتكوين الحكومات الوطنية) بل إلى سياق معقد ومتداخل، ينطوي على عنصري الفعل ورد الفعل في آن واحد.. القوة والقوة المقابلة، المستثارة.. السيطرة والمقاومة. وإذ ذاك سيكون ثمة تاريخ مشترك واقع سواء قبلناه أم لم نفعل، وهذا التاريخ المشترك ربما لن يفضي إلى ذاكرة مشتركة سيأية حال، لكنه يؤسس ذاكرات تتواشج في أكثر من نقطة، وتتفاعل حتى تكاد توجد فضاءً واحداً.. فضاء ثقافة، يدخل في ضمنه، مفهوم أدب ما بعد الكولونيالية.

تأخذ الذاكرة في مجال أي بحث، حول التاريخ المؤشكل، المترشح عن السياق الإمبريالي، موقعاً مركزياً، وأدب ما بعد الكولونيالية لا بد من أن يتعامل مع تلك الذاكرة، يمتح منها، ويعيد إنتاجها وترتيبها على وفق اعتبارات عديدة منها موضعة الكاتب بالنسبة لموضوع كتابته، ناهيك عن المحددات الإيديولوجية والسياسية التي توجهه، مع عدم استبعادنا المزاج والوعي الذاتيين له. المزاج

إن ذلك الأدب كله الذي كتب بتأثير من الوضع الذي خلّفته الإمبريالية هو أدب ما بعد الكولونيالية، فهذا الأدب يشتبك مع التاريخ الإمبريالي على وفق خطوط معقدة، لا يمكن إلا أن يقرأ قراءة طباقية. وفي ضوء أطروحة إدوارد سعيد ثمة سياقان متناظران ومتداخلان بشكل صارم هما سياق الواقع التاريخي كما أفرزه الفعل الاستعماري طوال قرنين في الأقل، وسياق النصوص الأدبية المتشكل على خلفية الصراع متعدد الوجوه وافرازاته. أي الهيمنة والمقاومة.. الفعل ورد الفعل. سياقان يتمفصلان ويتقاطعان ويلتحمان ويفرضان في تمفصلهما وتقاطعهما والتحامهما أشياء مشتركة كثيرة.

إن تأكيد الاختلاف والتنوع في أدب ما بعد الكولونيالية لا يلغي التفاعل، فهو ينكر مقولة صراع الحضارات، ومقولة الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا، لصالح مقولة أخرى هي الهجنة.. لا وجود لهويات صافية فتلك خرافة فاشية/ شوفينية.. وحتى الثقافة الغربية التي تسيدت منذ عصر الأنوار هي هجينة، لها مصادرها ومرجعياتها خارج الغرب الأوروبي.. إن دحض وهم النقاء وتكريس فكرة الهجنة ربما كان تمهيداً لعولمة أخرى أكثر عدالة وإنسانية. يقول إدوارد سعيد؛ (إن فكرة التعددية الثقافية، أو الهجنة. التي تشكل الأساس الحقيقي للهوية اليوم. لا تؤدي بالضرورة دائماً إلى السيطرة والعداوة، بل تؤدي إلى المشاركة، وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة. وإنه لعلى قدر كبير من الأهمية أن نتذكر ذلك في وقت يحاول فيه متطرفون مثل صامويل هنتنغتن أن يقنعوا العالم بأن صدام الحضارات أمر محتوم لا مفر منه).

تستحيل الهجنة إلى مصدر قلق خلاق يهيئ لفعل إبداعي مغاير، على أرضية كوزموبوليتية، وبرؤية تتخطى الرؤى الضيقة ذات النزوع الشوفيني. فما يتحقق ليس الاختلاف وحده، بل التنوع والتفاعل كذلك. وأدب ما بعد الكولونيالية استمد شرعيته وحضوره من هذه النقطة تحديداً، فهو أدب يجاري ويكافئ ويناظر ما يحدث في فضاء أكبر هو فضاء العولمة والانفتاح الثقافي، وهو أدب كاشف للمآزق المعاصرة، وناقد، في مقصده الخفي، لأشكال السلطة والهيمنة وآليات الإقصاء والاستلاب.. إن قوته تكمن في فتحه لإمكان مختلف على صعيد الرؤية والتعامل مع اللغة والإنشاء الفني. ومع هذا يجب أن نكون حذرين، ومن حقنا أن نتساءل، من دون أن نسقط أو ننبذ بدعوى السؤال فرضية الهجنة؛ إلى أي مدى يمكننا أن نثق بهذه الفرضية، بعبارة أخرى؛ ما هي ضماناتنا في أن لا تنقلب الهجنة ذاتها بعدها مقولة إنسانية إلى تذويب للذات في نسيج الآخر؟. فأمام ثقافة مهيمنة. ذات بعد واحد، بالمعنى الذي تحدث عنه هربرت ماركوز. مدعومة. هذه الثقافة. بقوة اقتصادية، سياسية، عسكرية عاتية، ما هي رهانات الثقافات الأضعف في التأثير، وتحقيق هذا الشيء الصلب المتجاوز، الهجين، وفي تجنب الاستلاب والامتثال والانقياد؟.

إن أدب ما بعد الكولونيالية لا يتعامل مع الهوية جوهراً ثابتاً، أو ماهية مكتملة، سابقة على وجود الإنسان، بل حقيقة متبدلة، ومصنوعة بأدوات ومواد خام الواقع والتاريخ، أي على أيدي البشر وبإرادتهم.. إن مفارقة الهوية التي مصدرها الانتماء المتعدد إلى الأمكنة والأعراق والثقافات، والمترشحة عن تجربة ذات أوجه متنوعة تتسلل إلى نسيج العمل الأدبي المعروف بأدب ما بعد الكولونيالية فنكون إزاء بعثرة بدلاً من تماسك كاذب، وانفتاح على ممكنات الحياة بدلاً من العزلة، وهذا ما ينعكس على الشكل والأسلوب أيضاً فنشهد تصويراً بارداً، حاداً، حيادياً، بلا مديح أو رثاء أو أحكام فضفاضة.

❖❖❖

مع إدوارد سعيد يغدو مصدر نشوء وازدهار فن الرواية هو الانفتاح الجغرافي.. الخروج إلى ما وراء حدود الدولة القومية.. فالرواية اشتبكت في ظهورها وتجلياتها وإحالاتها، بالاستناد إلى سعيد، مع فعل خروج الأوروبي/ الغربي من نطاقه الجغرافي مستكشفاً، ومغامراً رحالة، ومستشرقاً ومبشراً مسيحياً، ومستعمراً.. لقد كانت الرواية في ضوء هذا الافتراض بحاجة إلى مساحة واسعة من الأرض، وإلى تنوع بشري كبير لتكون.. كانت بحاجة إلى هذا الامتداد الأفقي شرطاً لاستكمال عملية تشكلها، ولذا أعطت الإمبراطوريات المتسعة بقوة الأساطيل المسلحة إطاراً مشهدياً كافياً لتبلور جنس أدبي يسمى الرواية.

إن فتوحات السرد الروائي منذ "دون كيشوت" لسرفانتس على وفق هذا التخريج/ الافتراض ستدشن في السياق الاستعماري.. يصبح الاستعمار مناسبة لكينونة الرواية التي هي بحاجة إلى فضاء متسع، لا إلى المدينة ومناخها وصعود الطبقة الوسطى مع انهيار الإقطاع والثورة الصناعية فحسب. فعلى الرغم من فداحة ما جرى منذ تدشين الغزوات الاستعمارية إلا أن الإنسان بفضل عوامل أخرى محايثة، ومعطاة، فارق عزلته في المكان مغادراً إلى حيث يكون العالم كله مجاله الحيوي والنطاق اللانهائي لتجربته الخابرة، وغربته الأبدية. فمع توفر ممكنات الارتحال وتعزيز احتمال النفي، ليس المكاني فحسب وإنما التخيلي والوجودي بالدرجة الأولى، يتسع أفق المعنى، وتنضج شروط السرد، وتغدو المخيلة أكثر حرية وقدرة.

وإذا أردنا أن نمضي مع افتراض إدوارد سعيد شوطاً أبعد فبإمكاننا القول أن الإمبراطورية التي أثارت بحكم منطق الضرورة التاريخية رد فعل ضدها من قبل الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) وأحد مظاهره بزوغ ثقافة مختلفة قد حفزت عند تلك الشعوب طاقتها التخيلية والإبداعية لإنشاء سردي عبر مصادرة الشكل الروائي الغربي، وهنا على غير توقع كثر من رجالات الإمبراطوريات تلك كتبت رواية بنفس آخر.. بوعي تفتح لتوه وراح يقرأ العالم بطريقة مغايرة مبدعة والذي حدث هو اختراق عمودي/ نوعي عزز بتمفصله مع الانفتاح الجغرافي الأفقي. والآن بالاتجاه المعاكس أيضاً. قدرة الفن الروائي، لا على تمثيل العالم في تنوعه وتعقيده فحسب، بل على تعزيز سمته الطباقية (النغمات الجديدة المنبعثة من هناك. من العالم المستعمر. لتتقاطع وتتداخل وتلتحم مع النغمات القديمة والجديدة إذ أفرز ذلك كله أساليب وطرقا مبتكرة في الكتابة).

لم تمت الرواية، كما تنبأ بعض من نقاد وكتّاب الغرب، وإنما عثرت لنفسها على فرصة هائلة للبقاء مع دخول كتّاب الشعوب التي خضعت للاستعمار الكولونيالي معترك الكتابة الروائية. كتّاب أفريقيا وأميركا اللاتينية والعالم العربي، وآسيا. والواقعية السحرية، ونمط الرواية اليابانية، والرواية ما بعد الكولونيالية شواهد عيانية تصمد أمام المحاججات المختلفة بثقة.

يتمرد أدب ما بعد الكولونيالية على موجبات وشروط المركزية الغربية ناشداً إرساء سرد مغاير يقوم بتفكيك تلك المركزية في الوقت الذي يؤكد فيه اختلافه. وعلى الرغم من أن هذا الأدب يقتحم المجال الثقافي بلا ادعاءات كبيرة، ومنها التمثيل والمقاومة، إلاّ أنه، في الأقل، يقوم بخلخلة وتقويض المنطق الكولونيالي الذي يصرح بأن الآخر غير قادر على تمثيل نفسه كونه عاجزاً وكسولاً وناقص الآدمية، أو من مرتبة أدنى، وبذا يجب تمثيله.. إن ذلك المنطق تجري تعريته وكشف هشاشة أسسه من خلال السرد الآخر/ المغاير.. أن نحكي الحكاية بطريقة أخرى.. بمنظور آخر.. بمسار جديد، وتعامل مع اللغة مبتكر وصادم. أو بعبارة أخرى محاولة كسر احتكار الغرب لحق السرد.. إضاءة جانب معتم، سعى الغرب بوجهه الامبريالي لإبقائه معتماً، أو لم يكن من سبيل في حينه لإضاءته.

ينشئ أدب ما بعد الكولونيالية ما يمكننا أن نسميه بالسرد المضاد، عبر رؤية لا تتطابق أو تتساوق مع الرؤية الكولونيالية أو الاستشراقية السائدة، والقارة في دوائر سجلات محفوظات الغرب. فهو. أي ذلك السرد. جزء من العملية النقدية الكبرى التي تفكك علاقات المركز. الأطراف والتي هي علاقات قوة وهيمنة أولاً، لا بالمعنى الاقتصادي والسياسي والعسكري فحسب، وإنما بالمعنى الثقافي أيضاً. فيعاد تشكيل صورة ما، سبق لها أن تكونت في ظل علاقات القوة/ الهيمنة ارتباطاً بمرحلة تاريخية متعينة هي المرحلة الكولونيالية.

هناك تملص مع السرد المضاد من تهمة الامتثالية، أو التقليد، أو خيانة الثقافة القومية، الخ.. إن ما يحدث ليس محاكاة، بل مصادرة للشكل الروائي، مع فرصة الاشتغال الحر عليه.. إن الرواية تقرأ اليوم بفضل كتّاب من أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا وأستراليا. وأسماء مثل ماركيز وأليخو كارينتير ونيبول واوندتاشي وديفيد معلوف وأمين معلوف ونغوغي واثينغو والطاهر بن جلون وياسوناري كاواباتا أمثلة على ذلك، والقائمة تطول.. يغدو هذا السرد كشفاً وتعرية.. نفاذاً إلى المتواري والمحتجب والممنوع. ولا أظن أن السرد المضاد يبغي انقطاعاً مع السرد الآخر/ سرد المركز/ الغرب، بل يبحث عن تجسير ما.. عن فرصة لتقديم إعانة معرفية وجمالية، عن توسيع لمدار التجربة المشتركة ثقافياً، عن إضافة منطقة حرة جديدة لمغامرة الوعي الإنساني، وعن تعزيز النزوع النقدي لذلك الوعي.

كان الاستعمار الكولونيالي، في وجه من أوجهه العديدة الملتبسة، صدمة أخرجت الوعي. وعي إنسان المناطق المستعمرة. من غفوته وغفلته وطمأنينته الكاذبة، وجعلته يرى مأزقه الحضاري والتاريخي. وأعطاه الفرصة ليثري المشهد السردي للوجود الإنساني برمته.

❖❖❖

إن أدب ما بعد الكولونيالية يكاد يكون الطريقة الأجدى ليؤكد الطرف/ الهامش ذاته، ولينتقم معنوياً من المركز، وذلك بمناورات الثقافة وطاقتها الخلاقة التي لا تنفد في النقد والتفكيك وإعادة صياغة العالم، على الرغم من أن هذا الأدب لا يدّعي لنفسه مثل هذه المهمة الجسيمة. فبالمقابل علينا أن نحذر من الوقوع في مصيدة الفاشية والشوفينية ونحن نتحدث عن أدب مختلف، في مواجهة المركزية الغربية، سلطة وخطاباً، بعدما جعلت معظم الحركات القومية التحررية شعوبها في عهد الاستقلال تحت وطأة استبداد الدولة الوطنية، حيث كانت النتائج كارثية.. كان الشرطي الأبيض يستبدل بآخر أسود، على وفق رؤية ونبوءة فرانز فانون. ولاحظ إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والإمبريالية" كيف أن كاتباً إفريقياً مثل سونيكا قد أفصح، وفانون في باله، عن المفارقة الضدية في مصطلح الزنوجة ومؤداها أن عبادة الزنجي أمر مرضي مقرف بقدر ما هو مقيت.. يقول إدوارد سعيد (الأصلانية، للأسف، تعزز التمايز حتى حين تعيد تقييم الطرف الأضعف أو الخاضع. وتعلي من شأنه .... وإن نقبل الأصلانية هو أن نقبل عقابيل الإمبريالية، أن نقبل الانقسامات العرقية والدينية والسياسية التي فرضتها الإمبريالية ذاتها).. يدعو سعيد، ها هنا، كما نستخلص، إلى أفق إنساني أرحب، تتخلص فيها الأقوام والأعراق من التمايزات والتراتبيات التي تؤصل الجوهرانية، ومن ثم العداوات، وتشعل الحروب.. يضيف سعيد؛ (وأن نهجر العالم التاريخي تعلّقا بماورائيات جواهر مثل الزنوجة، والايرلندانية، والإسلام، والكاثوليكية، هو أن نهجر التاريخ من أجل تجوهرات تملك القوة على أن تثير البشر، بعضهم ضد بعض، وكثيراً ما قاد هذا الهج